تعاون الجماعات

آية العصر الحاضر

للدكتور يحيى أحمد الدرديرى

من سنن الله الخالدة أن الحياة فى الجماعات أقوى منها فى الأفراد ، وكلما دق نظام الجماعة منح الفرد وسائل جمة تعينه على اجتياز الحياة ودرء الكثير من مخاطرها .

كان الانسان فى بدء حياته يعيش فى عزلة أو فى بيئة ضعيفة لا تعدو أبناءه وعشيرته ، فكان عرضة لطوارئ الطبيعة وتصاريف الزمان ، فكان كثير الكدح قليل الإنتاج . وقد دار الزمن دورته حتى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، واخترعت الآلة البخارية فأحدثت الثورة الصناعية فى انجلترا وغيرها ونقلت كثيرا من الممالك من زراعية إلى صناعية . ذلك أن الحياة كانت قبل اختراع آلات النسيج البخارية يسير فيها نظام الاقطاعيات ، أى حكم الأشراف والنبلاء والكنيسة .

وكان الفلاح يشتغل فى فصل الصيف فى أرض مولاه مزارعا ، ثم كان فى فصل الشتاء حينما تكون الأرض مغطاة بالثلوج و برودة الجو ولا تصلح لنماء الزرع يشتغل هو وأولاده فى دارهم بالغزل والنسيج ، فكان الفلاح يقضى حياته نصف سنة فى الزراعة والنصف الآخر فى الصناعة ، وقد بقى هذا النظام سائدا إلى أواخر القرن الثامن عشر .

وقد قدم للباحثين الأستاذ لونسكى فى كتابه عن التطور الصناعى البلجيكى أمثلة كثيرة فى حالة صناعة النسيج إذ يقول :

" إن تاجر المصنوعات القطنية كان يقدم المادة الأولية للصناع الذين يشتغلون لحسابهم و يأخذون أجر ما يصنعون ، وفى هذه الحالة كانت الصناعة فى بعض الأوقات فى المقام الثانى بعد الزراعة " .

على أن اختراع آلات النسيج البخارية وبناء المصانع الكبيرة فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر واتساع دائرة الاستثمار الأوروبى ، كل ذلك أحدث انقلابا كبيرا فى نظام الهيئة الاجتماعية فى كثير من البلاد الغربية ، فإن انتشار الصناعة فى دولة كسويسرا ،

نقل حالتها من بلاد زراعيـة إلى بلاد صناعية ، وكذلك اتساع نطاق المصـانع فى انجلترا ، كان له أكبر أثر فى حياتها الاجتماعية .

قو بلت آلات النسيج البخارية فى أول الأمر بمقاومة عنيفة واستياء من العمال الذين لم يكبح جماحهم إلا تدخل الحكومة فى الأمر .

جذبت المصانع كثيرا من الرجال والأطفال والنساء فى بادئ الأمر ، وذلك لكثرة طلب البضائع فى الأسواق الداخلية والخارجية وغيرها لرخص ثمنها عن البضائع التى تصنع باليد والأنوال.

وكانت كثرة الطلب تدعو المصانع إلى أن تشتغل ليـلا ونهارا على الرغم من أن نظامها الصحى لم يكن صالحا ولم تكن أجور العمال القليلة كافيـة لنفقات معيشتهم الضرورية ولم يكن فى ذلك الوقت قوانين لحماية العمال .

قال الأستاذ بلت : " يظهر فى بادئ الأمر أن كثيرا من رؤساء المصانع رأوا من المهارة والمنفعة أن يكرهوا النساء والأطفال ، وفى كثير من الأحيان العمال أيضا ، على أن يطيلوا مدة العمل . وبجهل الرؤساء بالقوانين الاقتصادية كانوا لا يجعلون فى محل الاعتبار أن من مصلحة العمال أن يرى العامل دائمـا زميله حسن الصحة وألا يرهق نفسه بما فوق طاقتـه فى أعمـاله اليومية خصوصا بالنسبة للبالغين ، فقد كان الرؤساء يستعملون معهم القسوة ، وهذا ما لا نوافق عليه" .

كان العمال فى هذا الوقت معرضين لشر الفاقة والفقر ، وذلك لقلة أجورهم وعدم استمرار العمل لكفاية الأسواق من الانتاج الصناعى ، فكان العمال من أجل ذلك فى حالة يرثى لها .

ولم يكن الفلاحون من المزارعين أحسن حالا من إخوانهم العمال إذ لم يكن لهم من الوسـائل ما يقيهم عادية الآفات الجوية ويحسن أحوالهم المعيشية ، فكان العمال والزراع يعانون من ألم الفقر والبؤس ما يعانون .

إزاء حالة العمال والزراع السيئة قام نفر من المصلحين يدعو إلى إصـلاح حالة هـذه الطوائف التعسة واتخـذ كل مصلح من الخطط والنظم ما رآه مؤدّيا إلى تحقيق غاياته . ونستطيع تلخيص أفكار هؤلاء المصلحين و جمعها تحت نظريتين عامتين :

(١) نظرية الاشتراكية العلمية .

(٢) نظرية التعاون .

وضع نظرية الاشتراكية العلمية كارل ماركس ، الذى ولد سنة ١٨١٨ ، ومات سنة ١٨٨٣

رأى كارل ماركس أن سبب شقاء العمال هو مطامع أصحاب رءوس الأموال وجشعهم فى الحصـول على الثروة ، واستغلالهم الضعفاء فى سبيل ذلك ، وأنه لا سبيل إلى إصلاح حياة

العمال إلا بالقضاء على سبب الشقاء وهو رأس المال، أى محاربة الملكية الفردية من صناعية وزراعية وتجارية ، وأن تكون المساواة بين الناس جميعا قانونا عاما، وأن يكون العمل إجباريا على كل فرد قادر ، وتدير هذه الملكية العامة حكومة من العمال والزراع، وبذلك ينصلح حال الطبقة الفقيرة .

ويرى كارل ماركس "أن التطور الاقتصادى من جهة وانتشار الديمقراطية من جهة أخرى، كفيلان بتحقيق برنامجه، لأن التطور الاقتصادى يسير فى طريق أن الملكية الصغيرة لا يمكنها البقاء إزاء الملكيات الكبيرة لما لهذه من وسائل الرقى والنجاح، والحرمان تلك من هذه الوسائل ، ولذلك فمحتوم إذا بقى هذا النظام أن يستحوذ أصحاب الأملاك الكبيرة على الأملاك الصغيرة وهكذا يصير شأن كل ملكية كبيرة مع ما هى أصغر منها ، إلى أن تصبح الملكية العامة فى يد نفر قليل، ويمكن فى هذه الحالة نزع الملكية من يد هذا النفر للمصلحة العامة بواسطة البرلمان الذى سيكون جله من العمال والفقراء بفضل انتشار مبادئ الديمقراطية وحرية الانتخاب، وحينئذ يمكن للبرلمان اتخاذ الإجراءات التشريعية لنزع هذه الملكية ، وأن يجعل من برنامجه تحريم الميراث، وأن يكون العمل إجباريا على القادرين جميعا وأن ينظم جيش من الصناع".

"وقد ذكر الأستاذ موريس بورجان فى كتابه (النظم الاشتراكية والتطور الاقتصادى) " أن الاشتراكية العلمية ، وهى أن يملك الناس كل شىء على الشيوع بلا تفاوت ، وطريقة إدارة إنتاجها ، ونظام الأسعار الثابتة حسب الزمن، ومعدل المجهود العملى، كل ذلك يدعو الحكومة لأن تملك من السلطة كل ما يملكه الأفراد، وبذلك يلقى على عاتق الادارة المكونة من أعضاء لا عدّ لهم، والذين تعولهم الحكومة، واجبا فوق طاقة البشر، ومسئولية ساحقة".

وقال شيفل " إذا كان الاشتراكيون يرمون إلى الغاء حرية حاجيات الانسان وجب أن ينظر اليهم كأعداء ألداء لكل حرية وكل مدنية وكل نعيم أدبى ومادى" وقد كانت هذه النظرية الاشتراكية أداة البؤس والفوضى والاضطراب .

وبجانب هذه النظرية قامت نظرية أخرى هى نظرية التعاون .

أثر التعاون فى الإصلاح :

إزاء ما يعانيه العمال والزراع قام جماعة من المصلحين يدعون إلى الإصلاح عن طريق العمال والزراع أنفسهم متمثلين بقول الشاعر العربى .

ما حك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك

ومن أشهر دعاة التعاون فى فرنسا شارل فوريه، المولود سنة ١٧٩٢ والمتوفى سنة ١٨٣٥، ومن دعاة التعاون فى انجلترا الدكتور وليم كنج المولود سنة ١٧٧٦ والمتوفى سنة ١٨٦٥، وروبرت آون

المولود سنة ١٧٧١ والمتوفى سنة ١٨٥٨ ، سعى أولها إلى نشر فكرة التعاون بخطاباته وكتاباته الكثيرة فى المجلات والصحف وغيرها ، أما الثانى فهو من مؤسسى الاشتراكية الانجليزية ، وزعيم النهضة التعاونية الأولى ، الذى أخرج فكرته إلى حيز الوجود بواسطة تجاربه و بإنشاء جماعات تعاونية عدّة فأدخل فيها كثيرا من الاصلاحات فى معامله ومصانعه فى بلدة نيولانارك.

والتعاون يرمى إلى غاية سامية ، وهى تحسين حالة القائمين به اقتصاديا واجتماعيا عن طريق مجهوداتهم . والتعاون كما قال الأستاذ فاى هو اتحاد بين البشر أكثر من أن يكون اتحادا بين رءوس الأموال .

وقد أوضح الأستاذ جورج يعقوب هوليوك عن حقيقة التعاون قائلا : "ما كانت الحركة التعاونية حركة استجداء أو عمل خيرى يقوم به المحسنون لمساعدة المحتاجين ، و إنما هى حركة اعتماد الطبقات الفقيرة على أنفسها لنيل حقوقها وهى حركة ضمان حقوق الفرد والمجموع معا" .

وقد قال الفيلسوف تولستوى " تحسن حالة العمال والفلاحين تدريجيا بانشاء جمعيات التعاون والنقابات والدعاية وانتخاب ممثليهم فى البرلمان ممن يعبر عن آرائهم ويدافع عن حقوقهم ، وهذا يؤدى إلى تملكهم المصانع والمزارع و باقى نصاب الانتاج وبذلك يتمتعون بحياة السعادة والحرية " .

لا نزاع فى أن الاصلاح الاجتماعى والاقتصادى من خير أسسه وأقوى دعائمه الجماعة الصالحة المؤمنة التى تصير إلى هدفها باليقين والصبر وصالح العمل .

وقد برهنت أمثال هذه الجماعة بخير البراهين على ما تنتجه من الفوائد للأمة والمجموع .

وأقرب مثل نقدمه ما ذكره الأستاذ خالد شلدريك فى محاضرته عن التعاون فى انجلترا عن الجمعية التعاونية للاتجار بالجملة فى انجلترا ، وهى الجمعية التى اشتركت الجمعيات التعاونية المنزلية فى تكوينها ، وعدد هذه الجمعيات نحو ألف جمعية يزيد عدد أعضائها على ثمانية ملايين عضوا وتبيع لهم فى السنة الواحدة بما يبلغ مائتين وخمسين مليون جنيه ، و بفضل هذه القوة التعاونية البالغة أصبحت الجمعية التعاونية للاتجار بالجملة فى انجلترا تمتلك عشرات المصانع لمختلف أنواع السلع . كما تمتلك المزارع الشاسعة والمناجم ، ولها أيضا أسطولها التجارى المعد لنقل البضائع اللازمة لأعضاء الجمعيات التعاونية المنزلية فى انجلترا من مختلف أنحاء العالم .

فاذا أردنا النهوض بأمتنا لنسلك بها الطريق السوى فعلينا أن ننظم الجماعات الصالحة ، ونضع لها الأهداف حتى تصل بالأمة إلى ما ترجو من عز وفلاح .

يحيى أحمد الدردير